إصلاح الطرق الصوفية

للدكتور مصطفى كمال وصفى
المستشار المساعد بمجلس الدولة

تكلمنا فى المقال السابق عن أهمية الصوفية ، وبينا أنها بمثابة الجامعة الشعبية التى تتولى الإرشاد الروحى للشعب المصرى . وبينا قيمة الحياة الروحية بالنسبة للروح المعنوية للأمم عامة ، وبالنسبة للمصريين خاصة .

ونتكلم هذه المرة عن حقيقة هذه الجامعة الشعبية ، وهل استطاعت أن تقوم بواجبها ، وما هى العيوب التى برزت فيها ومنعتها من أداء هـذه الرسالة . وذلك تمهيداً للجزء الأخير من المقال الذى سنعرضه فى المـرة القادمة ، وهو خطة الإصلاح .

١ — عيوب الطرق الصوفية فى الإقليم الجنوبى

إذا كانت الطرق الصوفية جامعة شعبية يمكن أن تصير إدارة نافعة ، بل الإدارة الأولى فى الإرشاد القومى الصحيح . فان الواقع هو أنها لا تستطيع أن تقوم بهذا الدور الآن وبالصورة التى هى عليه .

ليس ذلك طعنا فى الجهاز القائم . فان هذا الجهاز قد ورث عيوب الأجيال السابقة ، ويكفى القائمين الآن فخراً إذا هم بادروا إلى إصلاح هذه العيوب وإلى تصفية هذه التركة الثقيلة التى يرزحون تحت أثقالها لتخلص لهم فوائد الطرق ومنافعها للصالح العام المـرجو .

ويكفى القائمين الآن فخراً أنهم يسمحون بالاعتراف بأننا لسنا أبرياء من العيوب ، وانهم لم يقعدوا مع النائحين وعجائز الفرح ، بل بادروا بتشكيل لجنة شاملة فيها أعضاء المجلس الصوفى الأعلى ومندوبون عن المصالح والوزارات ذات الشأن وعضو من مجلس الدولة لكى يضعوا أسـاس الإصلاح وتعود الطرق مرة أخرى إلى الطريق السليم المستقيم .

ولا شك فى أن أول عمل لمثل هذه اللجنة هو أن تضع النقط على الحروف وأن تبلور الداء وتشخصه لكى تبدأ

فى علاج ، وليس من العار أن تكون فى بعض المعايب ، فأى الناس تصفو مشاربه ؟ ولكن العار هو أن تأخذنى العزة بالإثم وأن اتكبر وازعم أننى لاعيب فى مع أن عيبى ظاهر يراه الكافة ، وربما كان الشعور بالنقص هو أول درجات الكمال ، والإشارة بالعيب هو أول خطوات الاتجاه إلى الإصلاح .

ولذلك فتشخيص الداء ضرورى للاصلاح .

لقد سبق أن بينا أن هذه الجامعة الشعبية لابد من أن تتكون من خليط يضم الصالح والطالح . واننا لانستطيع أن نطرد الطالح عن أبوابنا ، فهذا تنكر لصاحب الحق الأول فى الإرشاد والطرق الصوفية باب الله وباب التوبة إليه ، ولن نستطيع أن نغلق باب الله فى وجه التائبين .

ولذلك فليس عيبا فى الطرق الصوفية أنها تضم بعض الذين لهم ماض ، بل يجب أن تضم أمثال هؤلاء ليمهد لهم سبيل العودة للحياة الصالحة ، ولا يمكن أن يعير ابن الطريقة بأن له ماض ، أو أنه يصدر منه مالا يليق .. لأن مجرد انتسابه للطريقة اعتراف منه بالحاجة إلى الإرشاد واستعداداً منه للتلقى .

ليس ذلك عيبا ، وانما العيب هو أن لا يكون أساتذة هذه الجامعة من المستوى اللازم لهذا الارشاد

يقول شيخنا الإمام الرفاعى « ما أقبح العلة بالأطباء ، والجهل بالالباء ، من لم يدرك فى نفسه النقصان فكل أيامه نقصان »

فلا عيب إذا كان المريد جاهلا سيء الخلق ، ولكن إذا كان المرشد كذلك فان الوضع يكون خطيرا ، وهنا يحتم العيب ومنه يبدأ العلاج

ولعله من المفيد أن نقرر أن المبادىء الصوفية الصحيحة ، والآثار الموروثة عن السلف الصالح كان من شأنها أن تنجى الطرق الصوفية مما تهاوت إليه ، وأن تحفظها مما هى فيه الآن ، لولا أننا نبذناها وراء ظهورنا وكأننا لا نعلمها واتبعنا من دونها ما أحاق بنا الضرر لأنه يحقق مصالح مادية تافهة زائلة للبعض « واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا »

فالأصول الصوفية الحقيقية تقتضى أن يكون للطريقة شيخا واحداً فقط والباقى كلهم مريدون ، ويقوم الشيخ بتربية هؤلاء النفر حتى يجد فيهم من

يصح أن يخلفه ، فيضمر ذلك فى نفسه حتى يستشعر قرب الأجل فيشاور مريديه فى أمر خلافة هذا المختار ، وربما حاجهم وأجرى أمامهم اختباراً لمرشحه يبين لهم صدق نظره فيه ورجحان كفته عمن يتوقون لتنصيبه ، فاذا انتقل الشيخ إلى جوار ربه قام الخليفة الجديد بدوره ، ويشترط لذلك أن تقوم أبناء الطريقة ببيعته والرضا بامامته وقد مهد الشيخ الأول لذلك بتهيئه هذا الخليفة لدوره الكبير والعناية به فى التربية والتقريب ، وإثبات أهليته للمنتسبين للطريقة

ومن شأن هذا النظام الا يرشح لشياخة الطرق الا من هو أهل لها

فأين هذا من نظام الوراثة الذى نراه الآن معمولا به ؟

لاشك أن الوراثة — وان أصابت فى كثير من الأحيان — إلا أنها فى النهاية لا بد أن تنتهى بالنظام إلى التدهور ، أقول لابد وحتما كما هو الحال فى السلالات الملكية الوراثية مثلا ، إذ يتعود الخلف الاعتماد على الملك والظروف المهيئة ، ويركنون إلى الترف ويظنون فى نفوسهم علواً على الناس ، ولكم أن تقارنوا فى أية سلالة وراثية بين المنشىء والمنتهى ، بين الأول والآخر ، ولا دليل أسطع من هذا وأقوى

وقد كنت أقول دائماً أن الله عز وعلا أراد أن ينجى آل البيت من هذا ومن أن ينقلبوا من أسرة نبوية إلى سلالة ملكية ، وذلك رحمة منه لهم وبركة عليهم ، فلم ينصر الحسن والحسين فى الخلافة وانجاهم من شرورها . وحبطت الكثير من الثورات والفتن التى قام بها العلويون على طول التاريخ وما كان نصرهم على الله بعزيز ولكنه لم يشأ . ولما أسست الدولة الفاطمية باسم بيت النبوة انتهى الأمر فيها بظهور خليفة متأله وآخر مجنون وثالث مبتذل فاسد حتى انهار ملكهم شأنه فى ذلك شأن أى نظام وراثى .

فاذا كان الملاحظ الآن ان الكثيرين من المشايخ الوراثيين على درجة من الصلاح ، فاننا لا نضمن أن يستمر الحال كذلك ، واننا كنا نطمع من أكثرهم أن يكون أكثر من ذلك قوة وعنفوانا فى الطريق . ثم ان أغلب من نراهم منهم لا يرقى حالهم عن أن يكونوا ، لامطعن عليهم ، أى لا تتبين فيهم عيبا ولا حسنة . بينما المطلوب لهذا المقام همة عالية مشحونة وقلب كبير وجهد جبار متصل وعزيمة قوية

وإيمان راسخ شديد ، حتى يكونوا كالمصدر الذى يشع النور إلى القلوب وتستضىء به سائر الهمم والعزائم ، ويكونوا مدداً حقيقيا للطريقة ورجالها .

ولا شك فى أن من شأن سلبية القائمين على الطرق ، أن تعم السلبية جهاز الطريقة نفسها فيتعطل ويقف دولاب عملها . بينما المطلوب هو الإيجابية والانبعاث والقوة . فينشأ عن ذلك الحركة والنشاط والتقدم .

ولو اقتصر الأمر على سلبية المشايخ واختيارهم بالوراثة لهان الأمر ، فقد بينا أن هؤلاء لا يضرون النظام فى شىء وغاية ماينتج الآن عن هذا الوضع هو العقم والجمود والتوقف . أى المحافظة على الأوضاع السابقة بدون تدهور وظهور مفاسد

ولكن المفاسد الحقيقية والعبث ظهر من طائفة الخلفاء ونحوهم ممن يلون الشيخ فى الأهمية ، فهؤلاء هم نذر التدمير والهدم فى كيان الجسد الصوفى وهم الذين أعنى بالتقويم والعلاج

أنا لا يهمنى أن يكون شيخ الطريقة وراثيا . ففى أصله الكريم العريق مايضمن فى كثير من الأحيان كرم خلقه وغيرته على سمعته . ويكفى أن يظل رمزاً للطريقه وشعارا لها ولو كان هذا الشعار سلبيا . . بل أن الشعار دائما لا يكون إلا سلبيا .

ولكن المهم كل الأهمية هو كيفيه أختيار الخليفة وطريقه ضمه إلى الأسرة الصوفية فقد سبق أن بينا أنه فى أوقات نهضة الصوفية لم يكن للشيخ خلفاء حال حياته . بل كانت الطريقة كلها مريدين ومنتسبين ولا يكن لها إلا شيخ واحد . ولذلك أستطاع الشيوخ أن يوجهوا مجتمعه نحو الخير . وفى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يقم إلى جانبه خلفاء صوفيون . بل كان أختيارهم بعد أنتقاله . وظل كل خليفة صوفى من هؤلاء الخلفاء يتلقى القبضه كابراً عن كابراً فلا يشاركه حال حياته خلفاء آخرين فى طريقته .

واستمر الحال كذلك إلى أن تطور النظام إلى مانحن فيه من بدعة فاسدة : أن يكون شيخ الطريقة ثان ، وإلى جانبه وفى نفس المدينة بل والحى الذى يقيم فيه ، آلاف مؤلفة من الخلفاء . كل منهم يعطى العهود ويقسم البركات على من يريد . ويحصل فى مقابل ذلك على مايستطيع الحصول عليه .

هذه بدعه . وكل بدعه ضلالة . وكل ضلالة فى النار .

البحث مستمر

(البقية من ص ٣٤)

الذى خلقك ، أن تعتمد عليه فى أمرك كله .

ثم بعد ذلك تنطلق فى هذه الحياة تعمل فيها لأن الله وضع لها قانون لايتبدل ولا يتغير ، هو الأسباب والمسببات .

وأنت بانطلاقك مع العاملين ، تدرك أن الأسباب من صنع رب العالمين ، وأنه أمرك بالأخذ بها ، وذلك هو الطريق المستقيم .

وإلى ذلك يشير قوله سبحانه «وتوكل على الحى الذى لايموت» . وبقليل من التفكر فيها تدرك من عجائبها وغرائبها الشىء الكثير .

توكل على الله الحى الذى لايموت .

هذا هو الاتجاه الصحيح ، لأن الله حى أبدا لايموت أبدا ، فأنت بتوكلك عليه إنما تعتمد على شىء حى يستطيع أن يمدك بالحياة الحقيقية المتجددة .

أما إذا توكلت على شىء غيره ، فأنت تعتمد على فان هالك ميت ، لاتستطيع أن يمدح لشىء ؛ لأنه هو ميت لاحياة فيه أصلا .

يالها من أسرار كبرى وعظائم عظمى ، توكل على الحى الذى لايموت » .

لاينبغى أن تتوكل إلا على مصدر الحياة ومعطى الحياة ، وذلك لا يكون إلا الله .

الله الذى هو الحى وحده لأنه لا يموت .

أما الانسان أما الملائكة أما أى شىء دونه فلايسمى حيا إلا تجوزا لأنه يوما ما يموت ، ومن الجهالة الاعتماد على من لابقاء له .

أرأيت من أسرارها وأنوارها .

قلبك أربطه بالله الذى لايموت ، ومتى وصلت قلبك بالحى ؛ يواهب الحياة لكل حى ، أعطاك الحياة ، الحياة الحقيقية بجمالها وجلالها .

إنك إذا حى بمعنى كلمة حى .

وعلامة الحى هو العمل ، الابداع ، الانتاج .

إن الله حى فهو يخلق ويصنع ويبدع ويعطى ويمنع .

كذلك علامة الإنسان الحى ، هو الابداع والصناعة ، والاعطاء والمنع ، والرضا والغضب .

مخلوق يشع الحيوية ويشرق بالنور .

ذلك هو المتوكل .

أما التبطل والتعطل باسم التوكل فذلك أمر ليس من سنة النبيين والمرسلين ولا من هدى الهداة والمهديين

آية ذلك قوله سبحانه «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً» .

أمر الرسل بالعمل وهم فى أعلى مقامات التوكل .

وقوله صلى الله عليه وسلم «رهبانية أمتى الجهاد» .

اعتبر صلى الله عليه وسلم الجهاد هو الرهبانية الصحيحة .

ذلك أن المجاهد فى الله ، رجل إيجابى لاسلبى .

المجاهد تجرد من الدنيا وخرج ليموت إعلاء للحق وإرضاء لله .

أما الراهب فتجرد من الدنيا وخرج ليعيش ويواصل الحياة فى زوايا النسيان .

فالمجاهد أرقى وأرقى .

وشتان بين من يتقدم للموت ومن يجبن عن الموت ويحرص على الحياة .

وذلك هو التوجيه الإسلامى الصحيح ، وتلك هى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم النقية الخالصة كما أنزلها رب العالمين .

فالتوكل هو أن تصل قلبك بالله صلة تعطيك طاقة ربانية دافعة دافقة تجعلك مخلوقا ربانيا تنطلق مجاهد عاملا لاتعرف سكونا ولا هدوءا حتى تعود إلى الله إما سعيدا وإما شهيدا ؟

محمود شلبى

رسائل القراء

توالت على سكرتارية التحرير رسائل السادة القراء مطالبين بعودة بابهم الحبيب - رسائل القراء - إلى صفحات المجلة ليكون معرضا لأفكار القراء واقتراحاتهم وأفكارهم .

ونزولا على تلك الرغبة الكريمة . نعيد ابتداء من العدد القادم إن شاء الله باب الرسائل .